الكَلِماتُ الرَّقيقَة

تأليف: لينا مصطفى الزيبق
رسم: محمد حلمي

بَدَأَ الرَّبيعُ يَخْطو جَميلًا إلى حَيِّنا الهادِئ، وكَسَتِ الأزْهارُ الصَّفْراءُ أسْوارَ الحَديقَةِ وجُدْرانَ البُيوتِ القَديمَة، ومَلَأ العُشْبُ الأخْضَرُ الزّاهي تُرابَ الحَديقَةِ وتَنَفَّسَتِ الأشْجارُ وراحَتْ أوْراقُها تَطْرُقُ البابَ لِيَرى الشَّمْسَ الدّافِئَة.

كانَتْ ضَحِكاتُ الأطْفالِ في الحَيِّ تَمْلَأُ المَكانَ فَأخَذَتُ كُرَتي الجَديدَةَ وتَوَجَّهْتُ لِأَلْعَبَ مَعَهُم. ولَكِنْ سُرْعانَ ما وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا.

كانَ حارِسُ الحَديقَةِ «العَمُّ سامِر» يَنْظُرُ إلَيَّ بِوَجْهِهِ الباسِمِ ولَمْ أسْتَطِعْ أنْ أُبادِلَهُ الابْتِسامَة، فَأنا أشْعُرُ بِالحُزْن.

تَوَجَّهَ إلَيَّ وجَلَسَ قُرْبي وقال: «أراكَ تَجْلِسُ وَحيدًا عابِسًا والأوْلادُ جَميعُهُم يَحْظونَ بِأوْقاتٍ مُمْتِعَةٍ».

أجَبْتُ بِسُرْعَةٍ: «لا أحَدَ مِنْهُم راغِبًا بِاللَّعِبِ مَعي».

أطْرَقَ «العَمُّ سامِر» رَأْسَهُ وقال: «ولِمَ يا صَغيري؟ رَأيْتُكَ تَتَحَدَّثُ مَعَ فادي، وبَعْدَ ذَلِكَ مَعَ مَرْوان، وأخيرًا مَعَ هالَة، فَما الَّذي دارَ بَيْنَكُم؟».

نَظَرْتُ إلى وَجْهِ الحارِسِ اللَّطيفِ وقُلْتُ: «كانَ فادي يَحْفُرُ التُّرابَ قُرْبَ بابِ البِناء، ويَداهُ مُتَّسِخَتان، وقُلْتُ إنَّهُ لا يُمْكِنُهُ إمْساكَ كُرَتي الجَديدةَ بِيَدَيْهِ المُتَّسِخَتَيْن، فَتَمْتَمَ بِكَلِماتٍ لَمْ أفْهَمْها وعادَ إلى عَمَلِه».

قالَ لي الحارِس: «فادي يُساعِدُني في زِراعَةِ نَباتاتٍ جَديدَةٍ في الحيِّ يا نِزار».

وتابَعْتُ حَديثي ورَأْسي إلى الأرض: «أمّا مَرْوان، فَقَدْ كانَ مُتَعَرِّقًا لِأَنَّهُ كانَ يَرْكُضُ حَوْلَ الحَديقَة، وقُلْتُ لَهُ إنَّ جَسَدَهُ السَّمينَ يُفْرِزُ الكَثيرَ مِنَ العَرَق. فَابْتَعَدَ عَنّي».

لَمْ يُجِبِ الحارِسُ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ، فَتابَعْتُ كَلامي: «أمّا هالَة، فَقَدْ كانَتْ تَصْنَعُ عِقْدًا مِنَ الأَزْهارِ المَرْمِيَّةِ عَلى أَرْضِ الحَديقَة، وقُلْتُ لَها إنَّ تِلْكَ الأَزْهارَ لا قيمَةَ لَها، فَغَضِبَت».

أمْسَكَ الحارِسُ رَأْسي وأدارَ وَجْهي إلَيْهِ وقال: «ما فَعَلَهُ الصِّغارُ أمورٌ جَميلَةٌ، ولَكِنَّكَ لَمْ تَرَ جَمالَ أفْعالِهِم. اِخْتَرْ كَلِماتٍ لَطيفَةً واَسْمَعْ جَميلَ رُدودِهِم».

فَكَّرْتُ كَثيرًا في ما قالَهُ الحارِس، وتَوَجَّهْتُ إلى صَديقي «فادي» وقُلْتُ لَه: «ما أجْمَلَ أنْ تَزْرَعَ أرْضَ الحَديقَة، لَيْتَني أسْتَطيعُ العَمَلَ مَعَك».

أشْرَقَ وَجْهُ «فادي» وقال: «لَدَيْنا نَباتاتٌ كَثيرَةٌ لِتَزْرَعَها، هَيّا شَمِّرْ عَنْ ساعِدَيْكَ وتَعال».
فَقُلْتُ لَه: «سَأطْلُبُ إلى مَرْوان أنْ يُساعِدَنا».

تَوَجَّهْتُ إلى «مَرْوان» الَّذي كانَ لد زالَ يَرْكُض، ورُحْتُ أرْكُضُ مَعَهُ كَيْ أتَحَدَّثَ إلَيْه، وسُرْعانَ ما بَدَأ العَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ وَجْهي فَقُلْت: «الرِّياضَةُ تُنَشِّطُ البَدَن، أحْسَنْتَ يا صَديقي».

نَظَرَ «مَرْوان» إلَيَّ بِسَعادَةٍ وقال: «أُريدُ أنْ أُخَفِّفَ مِنْ وَزْني قَليلًا، هَذا ما نَصَحَني بِهِ الطَّبيب».

«تَعالَ شارِكْنا في زِراعَةِ مَرْجِ الحَديقَة»، قُلْتُ لَه، فَتابَعَ الجَرْيَ وقالَ مُتَبَسِّمًا: «بَقِيَتْ لي دَوْرَةٌ واحِدَةٌ وسَأَلْقاكَ عِنْدَ المَرْج».

ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى حَيْثُ كانَتْ «هالَة» تَجْمَعُ أزْهارًا صَفْراءَ وقُلْتُ لَها بِهُدوءٍ: «رُبَّما مِنَ الجَيِّدِ أنْ نَجْمَعَ الأزْهارَ المَرْمِيَّةَ بَدَلًا مِنْ أنْ نَقْطِفَ الجَديدَة».

نَظَرَتْ إلَيَّ بِسَعادَةٍ وقالَت: «تُحِبُّ أُمّي عُقودَ الأزْهارِ الَّتي أصْنَعُها، سَأصْنَعُ واحِدًا لِأُمِّكَ أيْضًا».

شَكَرْتُها وتَوَجَّهْتُ إلى «فادي» الَّذي كانَ يَحْفِرُ تُرابَ الحَديقَة، وبَدَأْتُ العَمَلَ مَعَه، ثُمَّ انْضَمَّ إلَيْنا «مَروان» وبَعْضُ الصِّبْيَة، وكانَ الحارِسُ يُشْرِفُ عَلى عَمَلِنا.

مَرَّتْ أيّامٌ جَميلَةٌ، وأصْبَحَتِ الحَديقَةُ بَهِيَّةً جَميلَةً مُشْرِقَةً، الأطْفالُ كُلُّهُم يَعْمَلونَ بِسَعادَةٍ، ولَمْ أعُدْ أشْعُرُ بِالوَحْدَةِ قَط.